"تراث مدينتين – القدس وغزة" الراقصون على "مذبحة" التراث!  
د. وليد أحمد السيد  
الوطن العمانية - الثلاثاء 20 نيسان 2010  
  
  
خلال بضعة عقود من الإحتلال الصهيوني تعرض التراث الفلسطيني, الإسلامي والمسيحي, لأخطار متعددة– تمثلت بمحاولات ممنهجة لتهويده, وتغيير الأسماء العربية إلى عبرية, وتدمير مباشر بقصف عسكري سجادي أعمى ومكثف لغزة دون تمييز بين بشر أو حجر, وحفر تحت أساسات المقدسات الإسلامية بالقدس, وضم وتغيير هوية, وتهجير وتفريغ سكاني تمهيدا لتغيير معادلات ديمغرافية كاستراتيجية تحت التنفيذ منذ عقود, وتشجيع عصابات السرقة وقرصنة التراث وتهيئة البيئات المناسبة لتوالد شبكاتها وزيادة نشاطها في تهريب التراث إقليميا وعالميا, ودعم مالي وسياسي عالمي غير محدود لخدمة تلك السياسات الدؤوبة المستمرة. كل ذلك جرى ويجري أمام عالم أطبق أعينه وأشاح بنظره كيلا يبصر, وتحت أسماع مؤسسات عالمية أغلقت آذانها كيلا تسمع! ما تبقى كانت قلة قليلة من الشرفاء, محليا وعالميا, تمثلها إرادات متواضعة ماديا ولوجستيا في مواجهة هذا المسح والتدمير والتهويد العارم.   
  
على ضوء ما جرى منذ عقود, ويجري بشكل متسارع حاليا, لوضع "التراث" الفلسطيني على مقصلة الموت تمهيدا "لذبحه", وفيما تولّي جموع "المتفرجين" وجوههم شطر المشرق تارة وشطر المغرب تارة أخرى, تعيد قلة الشرفاء في فلسطين, في القدس وغزة, إحياء ذكرى التراث في اليوم العالمي للتراث الإنساني الذي يصادف اليوم - الثامن عشر من نيسان. وهذا اليوم العالمي للتراث والذي أقره المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو المنبثقة عن الأمم المتحدة في باريس عام 1972 كمناسبة دورية لرعاية التراث كقيمة إنسانية تتخطى الحدود الجغرافية وتشمل الثقافات العالمية المتنوعة, بات أشبه ما يكون "بالنكتة السمجة" في ظل ما يجري من "اغتيال" للتراث الفلسطيني والصمت المطبق الذي يحاكي ساديّة "الرقص" على مشهد بربري يهدر ويراق فيه "تاريخ أمة" وحضارتها على مذبح "الصهيونية" العالمية المتسيدة, أو "مذبح" هيكلها المزعوم. تتعاقب الأعوام, وميثاقيات الحفاظ التراثي العالمية تلوكها الأيام ولا تقدر على هضمها "الأرَضَة", سليلة "دودة قريش" التي أنهت حصارا ظالما وميثاق "خزي" على هامش التاريخ العربي الجاهلي. بيد أن ميثاقيات الأمم التي "أتحدت" وتوحّدت على الأمم الضعيفة ومقدراتها, وصاغتها بنود المؤتمرات, أو "المؤامرات", لم تفلح "أرَضَة اليوم" في أن تهضمها, وباتت لا تعدو أكثر من كونها ذرّا للرماد في العيون وأحبارا سالت على أوراق بخسة الثمن.   
  
وتوحّد أمم العالم على غض الطرف عما يجري لتراث فلسطين, والرقص على "مذبحته", لا يضاهيه إلا توحّد إرادة الشعب الفلسطيني على حماية تراثه – بما تبقى فيه من رمق على أيدي مؤسسات متواضعة القدرات, وأفراد شرفاء, ودعم متواضع من نبلاء العالم ومؤسساته الحرة. فتهويد القدس وتدمير تراث غزة يصل التراثين, وهما تراث فلسطين الواحد, بوحدة المصير. ويعني أن التراث الفلسطيني, تراث فلسطين "الطبيعية", التاريخية, لا فلسطين المحتلة "السياسية" مقطّعة الأوصال, قدسيّه وغزيّه, مسلمه ومسيحيّه, شماليّه وجنوبيّه, هو هدف لسياسة صهيونية منهجية للمحو والإزالة. فسياسة العزلة والأسوار باتت "أسطورة" يهودية قديمة, خطط أحبار الصهيونية العالمية اليوم كي تحل محلها مستوطنات "سرطانية" وجدار عنصري تقطع أوصال "الآخر" تمهيدا لالتهامه ومحوه عن بكرة أبيه.  
  
صرخة مدوّية من القدس تنذر بالخطر الذي يحدق بالمدينة العربية أطلقتها قبل أسبوعين فقط مؤسسة القدس الدولية في تقرير استراتيجي تحت عنوان "القدس 2010 مشروع التهويد في ذروته". التقرير بما حواه من نقاط خطيرة لسياسة التهويد والمحو والإزالة يستنهض ما تبقى من ذرات الشرف والعزة بهذه الأمة التي غرقت شعوبها في لهاث مستعر درءا لمجاعات ونقص مياه محدقة! ويلقي التقرير الضوء على العوامل التي سارعت في تهويد المدينة المقدسة مؤخرا على إثر الحروب الإقليمية الأخيرة في لبنان وغزة, والنظرة الدينية العنصرية الصهيونية التي ترى في كل ما هو "غير يهودي" بالمدينة تهديدا لوجودها, فضلا عن ضرورة المضي قدما في تهويد شرق مدينة القدس تماما, والتمهيد لذلك بفتح المجال أمام اعتداءات المتطرفين اليهود تحت حماية قوات الإحتلال, وصولا لمشروع "المدينة اليهودية المقدسة" في محيط المسجد الأقصى وعلى أنقاضه. يضاف إلى ذلك شروع سلطات الإحتلال في بناء معالم ورموز دينية في البلدة القديمة للقدس بعد افتتاح كنيس "الخراب" الرمز الديني اليهودي, والشروع ببناء كنيس "قدس النور" الذي يردد أصداء مخطط "أورشليم أولا" الصادر عام 2008, والذي تسعى سلطات الإحتلال لإقامته فوق المحكمة الإسلامية الملاصقة للسور الغربي للمسجد الأقصى المبارك. وكذلك فمخطط الإعتداءات والإستيلاء على الأوقاف المسيحية, كما يشير التقرير, لا يقل خطرا وخاصة في البلدة القديمة. وعلى صعيد سحب الهويات, للتخلص من أعلى نسبة من السكان الفلسطينيين وتعديل المعادلة الديموغرافية فيها بل تفريغها سكانيا, فقد وصل ذروته في القدس حيث بلغت نسبة سحب الهويات 35 بالمائة في العام 2008 وحده مقابل 65 بالمائة في الفترة من 1967 – 2008 (أكثر من 12 ألف هوية). وينضوي تحت هذا الهدف تهجير أحياء كاملة وهدم منازل فيها في محيط البلدة القديمة للقدس وتفتيت مخططها الإقليمي بالمستوطنات الممتدة "سرطانيا", وتكثيف نشاط الجمعيات الإستيطانية المرتبطة بالإحتلال في البلدة القديمة للإستيلاء على العقارات تحت غطاء قانوني وأمني ومالي غير مسبوق. ويخلص التقرير لمجموعة من التوصيات محليا وعربيا وعالميا تتلخص في التحرك الإعلامي والنصرة المالية لتثبيت المقدسيين في أرضهم, وضرورة تحرك المؤسسات العربية والعالمية المعنية قضائيا ومقاطعة سياسية واقتصادية وعلمية وأكاديمية لدولة الإحتلال والضغط عالميا للعمل ضد هذا الخطر الداهم الذي يحدق بالمدينة العربية المقدسة.  
  
في جانب آخر من الأرض المباركة, ومن تحت أنقاض "مركز عمارة التراث" بغزة, والذي تم تدميره في الجامعة الإسلامية, تنفض الإرادة الفلسطينية عنها ركام الدمار الصهيوني وتنهض من جديد بمباركة وجهود مؤسسات أوروبية ودولية مشكورة تعنى بالتراث وإعمار ما بعد الحرب. من أعماق تداعيات هذا الركام السياسي الظالم, تداعى الشرفاء أفرادا ومؤسسات من أقاصي البحار وما وراءها لمد تراث غزة "بشريان الحضارة". مركز عمارة التراث تم تدميره بالكامل في الحرب الأخيرة, لكنه انطلق بحلته الجديدة "إيوان", ليعنى بالحفاظ على التراث العمراني في قطاع غزة، والتوعية بأهميته التاريخية والفنية وإعداد البحوث والدراسات التعريفية حول التراث، والتواصل مع مؤسسات المجتمع المحلي والدولي العاملة في هذا المجال، وإنتاج وتسويق أعمال تراثية فنية تعزز القيم الحضارية للتراث العمراني في المجتمع. وينبثق عن المركز معرض دائم (أرابيسك) يضم لوحات ومخرجات الأعمال الفنية للدورات التدريبية والورش التي تصور مشاهد من التراث المعماري، وتجسد بعض عناصره المعمارية بأسلوب فني جميل، ومركز إيوان يهدف من وراء معرض أرابيسك إلى نشر الوعي بأهمية الموروث الحضاري المعماري، وإظهار القيمة التاريخية لتلك المباني. وفي إطار نشاطات كلية الهندسة بالجامعة الإسلامية يعقد المؤتمر الدولي الهندسي الثالث للهندسة وإعمار غزة في العاشر من تشرين أول/أكتوبر2010م. كما يعقد مؤتمر التراث العالمي هذا اليوم وينطلق العدد الأول من مجلة "إيوان" التي تعنى بالحفاظ التراثي تحت إدارة الدكتور عبد الرحمن محمد, ودعم المختصين والمعنيين بالجامعة, ومنهم الدكتور فريد القيق, وتحت رعاية رئاسة الجامعة والدكتور كمالين شعث, وعمادة كلية الهندسة ممثلة بالدكتور شفيق جندية, ورعاية وزارة الثقافة ومعالي الدكتور أسامة العيسوي. ومن أهداف مركز "إيوان" المساهمة في توظيف الطاقات المتاحة نحو تأسيس منهجية علمية وسليمة لعملية إعادة الإعمار، ومن المتوقع أن تشكل المادة العلمية للمؤتمر توطئة لجهود الإعمار المرتقبة، وتمهد الطريق نحو ربط هذه الجهود بخطة تنموية مستدامة للمجتمع الفلسطيني ومناطقه العمرانية في قطاع غزة.   
  
في مقابل هذه الأنشطة والفعاليات المتواضعة, والكبيرة بقيمتها المعنوية, يرن الصمت المطبق في فضاء التحرك العربي والدولي. ولو تم معشار ما يجري في فلسطين في أية دولة غربية, أو حتى عالمثالثية, تدعي تدثرها بلباس الديمقراطية والحرية المزعومة لأقامت عشرات الجمعيات والهيئات الدولية الدنيا ولم تقعدها, فضلا عن مؤسسات الشرعية الدولية, ولتحركت المدافع الثقيلة والجيوش الجرارة! فما يجري اليوم في فلسطين من "مذبحة" وسرقة, وقرصنة, وطمس, وتغيير لتراث شعب كامل يعود لأحقاب ودهور, ومسح "تاريخ" شعب كامل يجري تحت بصر وسمع العالم "الحر" (!), فضلا عن العالم العربي الراقد في سباتة "أبدية", فلا تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا – سكنوا سكون الموت وكأن على رؤوسهم الطير! فالعالم برمته غدا فجأة أصم وأعمى وأخرس, ومنافق, لا يهمّه إلا "ثقب الأوزون" أو بطّة عرجاء على شاطئ لوّثه "نفط" الحروب الظالمة, أو "حمار" تائه في صحراء بالشرق الأوسط, أو "بهيمة" أساء صاحبها معاملتها بتقليل أعواد البرسيم وزيادة ساعات العمل, في بلاد باتت جحافل الجوعى والمعدمين في ازدياد مطّرد لسرقة المال العام وزيادة أعداد "اللصوص" ذوي الربطات الأنيقة والبذلات الفاخرة. وبات الناظر يرى تقاطر جموع الجمعيات الخيرية والهيئات الحقوقية "صارخة" مولولة للمدافعة عن حقوق الطيور والبهائم!  
  
وبالرغم من هذا التواطؤ العالمي, فقد أعاد التراث الغزي, بأيدي شريفة ونظيفة ومن خلال مركز عمارة التراث الذي تعرض لقصف عسكري صهيوني كهدف مباشر, بعث نفسه من الركام ومن تحت الأنقاض, كطائر الفينيق "الأسطوري" الذي ينهض من الرماد. فهل ينتظر الراقصون, والمتفرجون, والمشيحون بوجوههم, عن "مذبحة" الأقصى معجزة انبعاث المسجد من تحت الأنقاض حين تميد الأرض بأنفاقها من تحته؟ فالتراث الفلسطيني المقدس, تاريخ أمة مجيدة وحامل حضارتها, سيصبح لعنة تطارد مدمّريه ومحاولي طمسه وتغييبه, وعلى من يتخاذل عن الحفاظ عليه أو نصرته. سيكون لعنة أبدية تطارد الراقصين, والمتفرجين, على "مذبحته", ستؤرق ليلهم وتقضّ مضاجعهم, وسيكون شوكة عصيّة في حلوق من رام به كيدا ومن عاونهم أو غضّ الطرف عن مؤامراتهم!  
  
وليد أحمد السيد  
لندن في 09 نيسان 2010